الفصل الثانى

الإطار الفكرى للتربية فى الإسلام

إن الإطار القيمى للإسلام ، بل إن الإطار الفكرى الإسلامى يتعرض لكثير من المحاولات التى تحاول إحلال قيم محل قيمه • وهذه المحاولات تأتى من داخل الأمة الإسلامية • كما تأتى من خارجها • وهذه المحاولات قد خططت لها جهات كثيرة من الخارج فى مدى زمنى طويل ؛ ربما يمتد بامتداد القرن التاسع عشر والقرن العشرين • ولكن اليوم يخطط له من الداخل على أيدى الذين هم فى الواقع ثمرة هذا التخطيط السابق ، من أبناء هذه الأمة ممن هم مسلمون بالميلاد ، وفى الواقع تتعرض القيم الإسلامية على أيديهم لأعنف الضربات وأشرسها • ومن هؤلاء فئات حاولت أن تصل إلى مراكز مؤثرة فى الرأى العام ، وفى اتجاهات الناس وفكرهم ، وفى سلوكهم العام والخاص • وهذه المراكز المؤثرة هى التى تؤدى دوراً رئيسياً فى توجيه الأمة ، وتوجيه فكرها • وهى دور الإعلام ، والمسرح ، والسينما وما شابهها • والمحلل لمحتوى ما تقدمه هذه الوسائط التربوية والثقافية من برامج ليجدها ملأى بمجموعة من القيم الشاردة ، الهابطة التى تسىء إلى شخصيتنا الإسلامية الأصلية •

وللأسف الشديد نجد أن هذه البرامج ، والأفلام ، والمسرحيات ــ فى كثير منها ــ لم تعد تقتصر فى النَّيْلِ من القيم الإسلامية على أساليب مستترة ، وإنما أصبحت تتجرأ مباشرة عليها بشكل سافر ، وتنال من أركان الإسلام وتعاليمه •

ويتطلب بناء الأمة الإسلامية على فكر إسلامى ، وقيم إسلامية أن تنقى هذه البرامج ــ والأفلام ، والمسرحيات ، والقصص ــ من كل ما علق بها من قيم تتعارض مع فكرنا الإسلامى وتحاول هدمه • فتأثير هذه المواد التى تقدمها وسائل الإعلام ، ودور السينما على النشء جد خطير ، وهى

وراء كثير من مظاهر الانحلال الأخلاقى والفكرى الذى بدأ ينتشر فى ربوع العالم الإسلامى بعد ما استشرى فى حضارة الغرب المادية ، والإلحادية •

والأسئلة التى يحاول البحث الإجابة عنها فى هذا الفصل ــ ولاحقيه ــ يمكن صياغتها على النحو التالى :

١ ــ ما أهم ملامح الفكر التربوى الإسلامى ؟ وما أهم ركائزه وأسسه وقيمه ؟ •

وهذا الســـؤال هام ، لأن فى تحديد هذه الملامح والركائز والأسس والقيم ما يخلق القناعة بها ، والتمسك بها لدى الأجيال المختلفة ، وخاصة الأجيال الناشئة فيها ، بعد أن حجبتها عنهم الغيوم والضباب الصناعى ، الذى نسجته المخططات المعادية له •

٢ ــ كيف نتخذ من هذا الفكر موجهات توجه الحياة فى المجتمع ، وتوجه التربية فيه بكل مناشطها ، ووسائطها ، ووسائلها ، وأهدافها ؟ •

٣ ــ كيف نواجه الواقع الذى نسجته الظروف المختلفة التى مرت بها الأمة الإسلامية فى تاريخها الحديث ، وما قبل تاريخها الحديث ؟ •

٤ ــ كيف ندرك باستمرار خطورة الفكر المستورد على فكرنا ، وكيف تكون الأجيال المقبلة على بصيرة من أمره ، وعلى وعى بمواجهته ؟ •

٥ ــ كيف ننقى مناهج التعليم ، وأهدافه ، ووسائله من السلبيات التى علقت بها بسبب التخلف الثقافى لأمتنا ، وانهزام وعينا وغيابه ، من الساحة الفكرية ؟ •

وكيف تصاغ المناهج ، والأهداف ، والوسائل فى إطار الفكر الإسلامى •

هذه الأسئلة كلها سوف نحاول الإجابة عنها فى فصول هذا الكتاب •

وسيختص الفصل الحالى بمناقشة الملامح العامة والإطار العام للفكر الإســـــلامى •

الاطار العام للفكر الاسلامى والفكر التربوى الاسلامى :

لعلنا نثير هنا قضية هامة جديرة بالبحث ، والحسم لأسباب كثيرة سوف تتضح فى ثنايا الدراسة ، حينما نطرح الأسئلة التى تثيرها ونحاول الإجابة عنها ، ونحاول الوصول إلى مقررات بصددها • وتتحدد هذه القضية على النحـو التالى :

لكل مجتمع « إطار عام لثقافته » • ويطلق على هذا الإطار الثقافى مسميات كثيرة ؛ فأحياناً يسمى « أيديولوجية » ، وأحياناً يرمز مصطلح « فلسفة المجتمع » إلى هذا الإطار ويوضحه • وأحياناً يطلق عليه « فكر المجتمع » • ومهما اختلفت المسميات ، ومهما اختلفت الشروح التى تتصدى لهذه المسميات ، فإنها تعنى فى النهاية شيئاً واحداً : وهو تلك القواعد العامة ، والمفاهيم الكلية التى تكوّن رباطاً واحداً ، وإطاراً مرجعياً مُستَمَداً من عناصر ثقافة المجتمع ، بل إن الثقافة ــ وما تتجسده فى شكل عناصر للنظم الاجتماعية ــ تعتبر التجسـيد الجزئى والكلى لهذا الفكـر ، أو لتلك الأيديولوجية ، أو لذلك الإطار ، أو لهذه الفلسفة •

وما من شك أن « المجتمع الإسلامى » له إطاره المحدد الواضح • وما من شك أيضاً أن المجتمع الإسلامى غائب اليوم ، وبالتالى فإن إطاره العام غائب • وليس معنى غياب المجتمع الإسلامى ، وغياب إطاره من واقع الحياة الإسلامية للأمة الإسلامية أن هذا المفهوم الإسلامى للأمة الإسلامية ، ولفكرها ولروحها قد أخلى سبيله إلى غير رجعة ، وإنما هو متمكن فى أعماق الشخصية المسلمة ، يحاول أن يجد سبيله إلى التعبير عن نفسه ، وإثبات قوته وأصالته وعمقه فى معترك الحياة المعاصرة • ولقد حدث ذلك الغياب لأسباب كثيرة ؛ منها ما هو تاريخى ، ومنها ما هو سياسى ، ومنها ما هو بسبب الاستعمار ، والتخلف بجميع أبعـاده الفكرية والسياسية والثقافية والاقتصادية • إلى غير ذلك من الأسباب التى تجل عن الحصر والتى تحفل بها كتب التاريخ ، والسياسة والاجتماع ، والفكر الإسلامى •

وهذا الإسلام المتمكن فى أعماق المسلم وضميره ووجدانه ــ سواء

استطاع أن يعبر عنه صراحة أو ضمناً أو لم يستطع ــ تظل مفاهيم هذا الإسلام تطارده وتلح عليه حتى يدركها ، أو يساعده غيره على إدراكها • ويظل « المسلم » غير المدرك لهذه المفاهيم ، أو غير القادر على فهمها يحس بأن شيئاً ما ينقصه وينقص الحياة الاجتماعية التى يعيشها ، ويحس بأن كل شىء يحدث منه أو يحدث من غيره ، أو يحس أن ما يصدر منه أو من غيره من فكر بأنه خاطىء أو صواب فى إطار هذه المفاهيم • بعضنا يستطيع أن يدرك مباشرة أن سبب أخطائنا يرجع إلى غياب المفهوم الإسلامى للمجتمع المسلم • وهؤلاء غالباً ما يكونون من ذوى الثقافة الإسلامية • وبعضهم يحس بأسباب هذه الأخطاء ، ولكنه لا يستطيع أن يعبر عما يحس به تعبيراً مفهوماً ، وهم الغالبية من المسلمين الذين تنقصهم الثقافة الإسلامية العميقة الواضحة • وهم يسمون فى التراث الإسلامى « المسلمون العوام » •

غير أن هذه الظواهر الفكرية والاجتماعية كلها تشير إلى أهمية أن يكون ذلك الإطار الفكرى الإسلامى واضحاً لكل المسلمين • وأن يرتبط مسلكهم الاجتماعى والفردى بجميع مظاهره بهذا الإطار الفكرى ، وما يندرج تحته من نظم وتنظيم ، وأن توجه تربيتهم فى ظله • وهذا « الإطار الفكرى » هام وحتمى للمجتمع الإسلامى : ففى ظله تتحدد سياسة المجتمع ، وتتحدد سياسته وممارساته الاقتصادية ، وسياساته الاجتماعية • وتعالج قضايا المعرفة والعلم ، وقضايا التربية والتعليم ، وتنشئة الأجيال المؤمنة المختلفة لهذه المجتمعات •

فالتناقض فى تفسير قضايا « المعرفة والعلم » ، والتناقض فى القضايا والمسائل التربوية المختلفة ، لا تقل خطراً عن التناقض فى القيم الاجتماعية والصراعات الاجتماعية بالنسبة « لحياة الأمة » ولمسيرتها ، وتحديدها لأهدافها ، ولحفز دوافع الحياة والنشاط فيها •

ولعل ما تعانية المجتمعات العربية بوجه خاص والإسلامية بوجه عام من تناقضات واضطرابات فى مسيرتها الاجتماعية والاقتصادية صوب التقدم مرده بالدرجة الأولى إلى الاضطرابات ، والصراعات القيمية الاجتماعية ،

وبنفس الدرجة إلى التناقضات والصراعات فى مجال « البحث العلمى » ، ومناقشة قضايا المعرفة ، وقضايا التربية والتعليم لأجيال هذه الأمة وتربيتها .

فليس هناك اتفاق حول قضايا « الفكر التربوى » وأسسه ومنطلقاته ، بل ليس هناك وضوح فكرى بصدد هذه القضايا لدى المتخصصين فى هذا المجال ، وبالتالى فليس هناك وضوح فكرى حول قضايا الوسائل ، والمناهج ، وما تتضمنه من مفاهيم وحقائق ، ومرد ذلك إلى المقتبسات الكثيرة المتناقضة ، التى اقتبسها المفكرون العاملون فى حقول المعرفة المتعددة ، وبالذات فى حقل التربية والتعليم ، إذ ليس هناك مجال من مجالات الفكر أو الواقع قد خضع لمثل هذا الخليط المتناقض من الآراء والنظريات المقتبسة .

ولغياب الإطار المرجعى لم نستطع أن نصفى معارفنا التربوية فى ضوئه فنبقى على ما يتفق مع هذا الإطار ، ونخلى سبيل ما يتناقض معه ، ويحطمه من الداخل بما يكيل له من صفعات ، خاصة إذا كان فكرنا هذا غير واضح المعالم والحدود عند هؤلاء المقتبسين أنفسهم .

وكما أثر ضياع الإطار الفكرى الإسلامى على القيم فى المجتمع فى مجالات الحياة : السياسية ، والاقتصادية ، والتربوية ، والاجتماعية بوجه عام ، فإن تأثير غيابه على الواقع السياسى والاقتصادى والتربوى والاجتماعى هو الآخر أكثر خطورة على حياة المسلمين ومجتمعاتهم .

وإذا كان غياب الإطار الفكرى قد تسبب فى هذا الضياع الفكرى والضياع التربوى والاجتماعى ــ فأين نجد هذا الإطار ؟ وكيف نصيغه حتى يصبح مقنعاً وواضحاً وموجهاً للمجتمع ؟ وبالتالى موجهاً للتربية فى المجتمع نفسه ؟ وماذا عن الإسلام كإطار عام لحياة المجتمع الإسلامى نشتق منه إطاراً عاماً للتربية فى هذا المجتمع ، ثم نوجه مناشط الحياة المختلفة ، ومنها المناشط التربوية المختلفة فى ظله ؟ .

وإذا كان الإسلام هو المرشح لإنقاذ مجتمعاتنا مما تردت فيه • فماذا فيه من خصائص تجعله المنقذ الوحيد لحياتنا ؛ بل لحياة غيرنا فى هذا العصر الذى تردت فيه الحياة إلى الدرك الأسفل ؛ خاصة فى مجال القيم والعلاقات الإنسانية ، وأصبح المسيِّر الوحيد لها هو القيم المادية الصرفة والاتجاهات الجنسية الشاذة ؟ وما الأسس والركائز التى يقوم عليها ، وتجعله أقوى على مجابهة هذه الأمور المتردية فى حياتنا ؟ •

بعض خصائص الفكر الإسـلامى

شمول الفكر الاسلامى وواقعيته :

نزل الإسلام للمجتمعات البشرية ليصحح مساراتها ؛ ويقنن قيمها وأخلاقها ، ويشرع قوانينها ودساتيرها • ولذلك فإن الإسلام لم ينعزل فى الوجدان البشرى مُطلقاً الحياة الواقعية للمجتمع ، وإنما وضع الله أسس هذا الدين ومعالمه ومفاهيمه من خلال محك رئيسى هو : قدرة هذا الدين على التطبيق فى النظم الاجتماعية والسياسية والقانونية والاقتصادية • ولذلك فهو نظام للسياسة والحكم ، والاقتصاد والقانون ، وللعلاقات الاجتماعية المختلفة ، ولذلك اعتبر الإسلام تطبيق أسسه التى وردت فى قرآنه الكريم وفى سُنَّة رسوله شرطاً لإيمان المجتمع : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »[١] • « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً »[٢] •

ولكى يفى الإسلام بهذه المهمة الكبيرة التى وكلت له فقد جاء متصفاً بمجموعة من الخصائص التى تتضائل أمامها خصائص أية نظم اجتماعية من صنع البشر ، فهو كلٌّ متكامل" ، يجمع فى إطار متسق جميع مشتملاته : من عقيدة ، وعبادات ، ومعاملات ، وتشريعات وتوجيهات للأخلاق وللآداب العامة • وهذا الكل المتكامل يتكامل بتناسقه ، وارتباطه المنطقى والفكرى ، وإعطائه الأهمية المتوازنة لكل من العبـــــادات والتشريعات الاجتماعية والاقتصادية والبشرية • ويتكامل ثانياً بربط الإنسان بالمجتمع اللذين وُجد هذا الدين من أجلهما • ويتكامل ثالثاً بإيجاد تلك الصلات القوية بين العبادة والسلوك ، وبين العقيدة والعمل ، وبين الدنيا والآخرة : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا »[٣] •

والإسلام قد صيغ فى مبادىء عامة ، وقواعد شاملة ، بحيث تستوعب

---

(١) سورة المائدة ــ آية (٤٤) .
(٢) سورة النساء ــ آية (٦٥) .
(٣) سورة القصص ــ آية (٧٧) .

مراحل التطور الإنسانى فى كل العصور والمجتمعات • وترك للاجتهادات البشرية أن تبذل قصارى جهدها فى ظل هذا الإطار الشامل العام ، وإن كان قد فصل فى أمور جزئية إدراكاً من رب العالمين بأنها مسائل لا تتغير ، وانها توجد فى كل عصر ومصر •

وهذا الإطار الفكرى المتكامل الشامل للإسلام يتضمن نظرية فى الوجود والحياة والإنسان ، وعلى أساسه بنى جميع تشريعاته ونظرياته وعباداته ، وحدد طبيعة العلاقة بين الوجود ، والحياة ، والإنسان وخالقه ، وبين الوجود والحياة والإنسان ، وبين الإنسان ونفسه ، وبينه وجماعته ، وبينه ودولته ، وبين جماعته والجماعات الإنسانية ، وبينه وجيله ، وبين جيله والأجيال السابقة واللاحقة • وكل التفرعات والجزئيات فى الإسلام يمكن فهمها فى ظل هذا الإطار الشامل المتكامل • وهذا الإطار الشامل يمكن أن نتبينه من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وسُنَّة الرسول الكريم وسيرته العملية • وطبيعة العلاقة بين خالق الوجود ، وهذا الوجود بما فيه ، من إنسان وجميع المخلوقات ، تتحدد بأن خالق هذا الكون هو الذى يملك الإرادة المسيرة لهذا الكون •

وهى إرادة تحفظه وتنظمه وتسيره « يدبر الأمر يفصّل الآيات »[١] « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير »[٢] • « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »[٣] •

وكل جزئية فى هذا الوجود لها حكمة وهدف ، وقد خُلقت بحساب دقيق من خالقها : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا »[٤] « إنَّا كُلَّ شىء خلقناه بقدَر »[٥] •

---

(١) سورة الرعد ــ آية (٢) •
(٢) سورة الملك ــ آية (١) •
(٣) سورة يس ــ آية (٤٠) •
(٤) سورة الفرقان ــ آية (٢) •
(٥) سورة القمر ــ آية (٤٩) •

والخالق له إرادته المباشرة المطلقة على مخلوقاته كافة • وهو يرعاها رعاية مباشرة متصلة « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مُستقرَّها ومستودعها »[١] • « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توَسْوِسُ به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد »[٢] •

والإسلام بذلك يقرر وحدة القوى الكونية والقوى الإنسانية ؛ ووحدة القوى الروحية والقوى المادية • فلا ينكر إحداها على حساب الأخرى ، أو لإثبات الأخرى ؛ ولا تجد فيهما تعارضاً • وحدة يتحقق من خلالها تكامل وارتباط بين الحياة والوجود ، وبين الفرد والمجتمع ، والمجتمع والفرد ، وبين الفرد فى داخله بجميع دوافعه ، وبين الحياة الأولى والحياة الآخرة • وحدة فيها تكامل بين الروحانيات والماديات ؛ وبين القيمة المادية والقيمة المعنوية ، وبين المعاملات والعبادات ، وبين العقيدة والسلوك •

والإسلام فوق ذلك هو دين التوحيد : يدعو لإله واحد ، وإلى دين واحد ، وهو بذلك ينطلق فى كل تشريعاته ــ الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وعباداته وفروضه ــ من فكرة الوحدة والتكامل والشمول ، كخاصية رئيسية فيه •

وعلى ذلك فالإسلام ينظر للمجتمع وحركته وأهدافه نظرة شمولية ؛ فهو لا يغلّب (نظاماً) على آخر من نظم المجتمع ، ولا (قيماً) على قيم أخرى من قيمه ، فالنظام الاقتصادى ليس هو المحرك الوحيد لحركة المجتمع وتغيره نحو أهدافه ، ولا حتى « النظام الروحى » الدينى هو المحرك الأوحد للمجتمع •• ولا غيره من النظم • وليست القيم الاقتصادية هى مصدر النشاط والحركة الحيوية للمجتمع • وليست القيم الروحية هى القيم الوحيدة التى تستمر بها الحياة وتنمو فى المجتمع • ولكن تنتظم حركة المجتمع وتتساوق فى ظل توازن وتعادل بين النظم جميعها ، وبين (القيم) جميعها : روحية ومادية ، معنوية واقتصادية •

---

(١) سورة هود ــ آية (٦) •
(٢) سورة ق ــ آية (١٦) •

والإسلام يشجع إطلاق الطاقات والقوى الفطرية فى الإنسان ، وهو فى ذلك ينميها من خلال العمل والنشاط الحيوى ، ويعتبر كل نشاط يبذله الإنسان مراعياً وجه الله ، ومحققاً لأهداف الحياة عملا يُثاب عليه • وهو بهذا يوحد بين القوى الفطرية والقوى البيئية ، ويعتبرهما قوتين متعاونتين فى أى حركة ونمو حيوى وإنسانى •

ويسلم الإســـلام بأن استعدادات الأفراد الطبيعية الفطرية ليست متساوية ، ولذلك فإن الإسلام يهيىء فرصاً متكافئة أمام الجميع ، ثم يترك باب « المصعد » الاجتماعى مفتوحا للجميع بالجهد والعمل ، وهو بهذا يطرح حلاً حاسماً لقضية المساواة والعدالة الاجتماعية ، والقيادة والتبعية ، ويوجه التربية فى خطها (الانتخابى) وخطها العادل فى إتاحة الفرص أمام جميع أبناء المجتمع لكى تنمو إمكاناتهم إلى أقصى درجات النمو •• ومن ثمّ تتضح الفروق بين الأفراد ، كلٌ حسب استعداده وطاقته •

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجات »[1] •

وللإسلام روح يحسه من يعتنق هذا الدين كامناً فى كل ما جاء به • وهو وإن كان يرتبط بالنصوص فهو يرتبط أكثر ما يرتبط بجوهرها ومعناها •

وروح الإسلام مُرتقى يصل إلى أفق أعلى ليس سهلا ، وإن كان فى حدود القدرة البشرية واستطاعتها « لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها »[2] •

ولكن الناس يختلفون فى درجات أعمالهم • وبالتالى يختلفـــون فى الدرجات التى يحصلون عليها لقاء ما عملوا فى ارتقائهم وصعودهم لهذا المرتقى « ولكلٍ درجاتٌ مِمّا عملوا »[3] •

ولقد تُرجم الفكر الإسلامى إلى واقع ، وجُسّد فى نماذج من البشر ،

---

(١) سورة الزخرف ــ آية (٣٢) .
(٢) سورة البقرة ــ آية (٢٨٦) .
(٣) سورة الأنعام ــ آية (١٣٢) وسورة الأحقاف ــ آية (١٩) .

وأحداث ووقائع ونظم اجتماعية تركت بصماتها فى التاريخ البشرى بشكل يشبه الأساطير • وفى ضـــوء هذا الروح يمكننا أن نفسر وقائع التاريخ الإسلامى ونفسر أسراره ، ونفسر ونحلل شخصياته التاريخية وما صدر عنها من أحداث تاريخية يندر أن يحتشد بها تاريخ من تواريخ البشرية ؛ لا من حيث الكم ولا من حيث الكيف •

عالمية الاســـــــــلام :

لقد نزل الإسلام للناس كافة • فهـــو ليس لشعب دون غيره من الشعوب • ولا لقومية دون غيرها من القوميات • ولا لجنس دون غيره من الأجناس • ولذلك كان قوامه إزالة جميع الفوارق بين البشر المتأصلة بينهم بسبب الجنس ، أو اللغة ، أو الثقافة ، أو الانتماء القومى • كما كان هدفه بناء أمة إسلامية عامة ؛ تتصف بالشمول الإنسانى ، والعمومية العالمية • وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم مخاطباً رسول هذا الإسلام الحنيف : « وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً »[١] • « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً نذيراً »[٢] •

وما كانت هذه الدعوة العامة لرسول الإسلام لتحيا فى الفكر فقط : فكر الرسول وأصحابه وأتباعه ، ولكنها شقت أرض الواقع الاجتماعى لتتجسد فى أهداف الأمة الإسلامية ، وفى مناهجها فى الحياة • ومنذ فجر هذه الدعوة الإسلامية وهى تجذب الناس من سلالات مختلفة : منها الحبشى ، ومنها الفارسىّ ، ومنها العربى ، حتى جذبت غالبية السلالات والأقوام تقريباً فى الربع الأول لها • وامتد هذا الدخول فى دين الله طوال القرون الأولى لهذه الدعوة ، حتى أنه لم ينقض القرن الثالث للهجرة حتى شمل الإسلام جميع الأجناس البشرية : من ساميين وحاميين ، وآريين ، وطورانيين ، وغيرهم من السلالات والقوميات ، والشعوب •

ولقد تحقق للإسلام ــ فى جلّ انتشاره ــ هذا المد الإنسانى لجاذبية

---

(١) سورة النساء ــ آية (٧٩) .
(٢) سورة سبأ ــ آية (٢٨) .

فكره ، ووضوح عقيدته ، ولرفعة أخلاقياته ومثالياته ؛ وواقعيتها فى نفس الوقت بما لم يتوافر لدين أو لفكر قبله ولا بعده • ولذلك جذبت إليه الشعوب المجاورة لهبط رسالته وآمنت به قبل أن تشد الجيوش الإسلامية رحالها إلى هذه الشعوب • آمن به نفر من أهل مصر • وهى أمة ذات كتاب ، وعريقة فى التدين ، وما كان جيش عمرو بن العاص إلا إزالة لطغيان يحول بين شعب مصر وبين الدين الجديد • وآمن به نفر من أهل فارس ، وكذلك أهل الشام ، وكلتاهما كانتا تدينان بدين • الأولى ذات دين يؤمن بالله واليوم الآخر والحساب والعقاب وخلود الروح • والأخرى كانت المسيحية ديانتها التى استقبلتها على يد المسيح عليه السلام •

وقصة المصريين (المسيحيين) دينا ، المتهيئين لدين الخلاص — وهو الدين الإسلامى حينما سمعوا به — معروفة • فلقد قابلوا عمرو بن العاص (بالدفوف والترحاب) • لأن المبادىء الجديدة سوف تنقذ (المصريين المسيحيين) من الرومان (المسيحيين) • هل بعد هذا قوة وجاذبية ، وقدرة على إقناع الشعوب العريقة فى المدنية والتاريخ ؟ •

وقصة انتشار الدين فى آسيا — العريقة فى التاريخ هى الأخرى — جديرة بالذكر ؛ فقد انتشر الإسلام فيها بالقدوة الحسنة ، والمعاملات الإسلامية الناضجة الطيبة ، التى بهرت الآسيويين ، فبحثوا عن أسباب هذا الرقى الأخلاقى والسمو الشخصى فيمن يتعاملون معهم فوجدوها فى الإسلام •• فلما عثروا على ضالتهم أسلموا لله رب العالمين ، وأصبح ألوف الملايين من البشر مسلمين بغير جهد تبشيرى على الإطلاق وبغير دعوة مقصودة •

وقصة سهولة انتشار الدين الإسلامى فى أفريقيا فى مقابل انحسار الجهد التبشيرى المسيحى ليأسه هى الأخرى دليل على أن الإسلام « دين الفطرة » • حيث تتلاقى الفطرة الإنسانية مع روح هذا الدين ، وإشعاعاته الفكرية ، وسلوك أصحابه العملى فلا يجد « الأفريقى » البسيط فى مظهره العميق فى إنسانيته أمامه شيئاً مقنعاً غير الإسلام •

وقصة انتشار الدين الإسلامى فى أوربا الآن جديرة بالبحث والنظر ، وما يبشر به المستقبل من ازدياد هذا المد الإسلامى فيها يثبت هو الآخر ويقدم دليلا حياً على قدرة هذا الدين و « عمقه » وعقلانيته • فليس لأحد أن ينكر على أوربا الآن احترامها وتقديسها « لخاصية العقلانية » الإنسانية والاجتماعية ، وبتأصل هذه العقلانية فيها وبتمكنها منها سوف تجد نفسها معلنة لإسلامها بعد أن استوعبت كثيراً من فكره وقيمه ، على المستوى النظرى على الأقل •

إن التاريخ ليدلنا على أن الإسلام قد انتشر بالقدوة وبغير الحروب • وما كانت الحروب فى كثير من دوافعها إلا حروباً سياسية ، وليست لإكراه الناس على الدين الجديد • لقد كانت فى كثير من الحالات لإزالة «الطواغيت» الحكومية التى تمنع الناس من الدخول فى الدين الجديد ، أو لقهر ظلم يقع على الشعوب ، من حكامها بسبب اعتناقهم الدين الجديد • والدليل على ذلك أنه بعد أن فتحت بلاد مثل الشام ومصر مثلا ظل بها « مسيحيون » ، ويهود تحت ظل المبدأ الإسلامى الرائع « لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا » فى الحقوق والواجبات الإنسانية والاجتماعية العامة • أما عقيدتهم ودور عبادتهم وفقاً لعقيدتهم فلم يمسها أحد على الإطلاق • وهذه إحدى جوانب الحرية فى الإسلام ، وإحدى نواحى الديمقراطية فيه ، فلا يُضطهد أحد بسبب عقيدته ، ولا يميز بينه وبين أهل الدين الجديد ، وإنما الكل سواسية أمام النظام الاجتماعى وقوانينه وتشريعاته التنظيمية المختلفة ، فيما عدا ما يتعلق بأمور العقيدة والدين •

وإن هذه الصفة العالمية ، والخاصية الشمولية للإسلام هى فيه ابتداء ، وهى مازالت فيه استمراراً ، وستظل له مستقبلا ، وهى فيه واضحة فى فكره وفى دعواه ، وهى فيه بوضوح أكبر وأكثر عمقاً حينما يشعها أبناء هذا الإسلام بعد استيعابهم لها ، وتمثلهم لقضاياها وسلوكهم بما يتفق مع مضامينها ومغزاها •

ولذلك فإن أحد المفاهيم التربوية الأساسية فى الإسلام هو بناء الإنسان

المسلم ، بحيث يكون إيجابياً مع نفسه بالمجاهدة ، وتمثل الإسلام فكراً وعملا ، عقيدة وسلوكاً • وأن يكون إيجابياً تجاه « الدعوة الإسلامية » فجزء أساسى من إسلامه يكتمل « بالدعوة » • فهو مُكلَّف من قبل هذه الدعوة الإسلامية ــ إلى جانب إسلامه ــ أن يكون « مُبلِّغاً » لهذه الدعوة ، أميناً عليها • سواء كان ذلك « بالقدوة الصالحة والتمثيل الحى » لفكر الإسلام وسلوكه ، أو كان ذلك « بجهاد » العقبات التى تحول دون نشر هذه الدعوة الإسلامية للعاملين كافة ، وهنا ندرك مغزى وأهمية الجهاد وضرورته ؛ فهو رسالة لا تتصف بالغزو ، ولا بالتسلط ، ولا بالاستعباد ، ولا باستغلال ثروات الشعوب • وإنما هى رسالة « للهداية » ونشر المبادىء والقيم والمثل العليا • وكذلك جعل الإسلام الموت فى سبيل هذه المبادىء والقيم والمثل العليا استشهاداً فى سبيل الله ، أى فى سبيل الحق والفضيلة والقيم •• وجزاؤه الجنة ، وجعل منزلة الشهيد فى منزلة الرسل والأنبياء ، لأنه يموت على نفس المسلك الذى سلكه الرسل فى نشر دعوتهم ، وحذر من أن يكون المسلم سلبياً إزاء هذا الجهاد • فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم ينو الجهاد مات ميتة جاهلية » كما جعل الجهاد فريضة على كل مسلم ومسلمة : « كُتِبَ عليكم القتالُ وهو كُرْهٌ لكم »[1] •

هذا المفهوم الإسلامى بما يحتويه من « قيم ، ومثل عليا ، وسلوك إنسانى ، وإعداد بشرى ، وتربية حقيقية يتاح لها المكان والزمان والخبرات التى تحققه » يضع التربية الإسلامية أمام مسئوليتها الحقيقية فى تغيير الأهداف التربوية ، والمناهج الدراسية ، والمبانى المدرسية ، وإعداد المعلمين لتحقيق هذا المحتوى الثرى لهذا المفهوم التربوى الأصيل فى الإسلام •

---

(١) سورة البقرة ــ آية (٢١٦) •

الاســـــلام دين البشرية :

ومن تحليلنا السابق نرى أن الإسلام دين البشرية • وفى هذا يخاطب رب العالمين رسول العالمين ، ويخاطب الله سبحانه البشرية ممثلة فى رسوله إليها بقوله : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » • فهى آية نزلت على رسول الله فى حجة الوداع ، على عرفات ، يختم بها آيات القرآن الكريم ليبدأ بها الرسول (ص) عهداً جديداً فى الدعوة للبشرية للشعوب والأجناس كافة ، ولتبدأ به البشرية عهداً جديداً فى استقبال هذه الدعوة والتهيئة لها • وكان نزولها فى هذا التوقيت بداية لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة وإنسانيتها وعالميتها • وكان نزولها فى هذا المكان إيذاناً لاتجاه العالمين شطر البيت الحرام ، والحج إليه كل عام بقصد تجديد البيعة ، واستشعار الوجهة ، والاتجاه حول الفكر الجديد والالتفاف حوله ، ثم العودة إلى الأهل ، والأوطان بهذا الزاد الجديد الذى نَهَلُوه من هذا الدين الحنيف •

وإذا كان الإسلام هو دين البشرية ، فإن منهجه ــ بداهة ــ هو منهج هذه البشرية ؛ ولذلك فعلينا أمانة أن نعلّم البشرية هذا المنهج الإسلامى • علينا أن ندلّ البشرية على الإطار العام لهذا المنهج حتى تستطيع أن تقيم جهودها واتجاهاتها فى ظل هذا الإطار الإلهى ، وأن تسير « بالعلوم الجزئية » فى نطاق هذا الإطار • ولكن قبل أن نصبح « معلمين للبشرية » علينا أن نتمثل أولا أسس هذا المنهج ، وأن نعد هذه الأسس أولا إعداداً يتفق مع أسس إعداد « المعلم » الأول : رسول الله صلى الله عليه وسلم • فنصبح بذلك معلمين قادرين وجديرين بالتبليغ والدعوة لهذه الرسالة ؛ ولذلك المنهج الذى وضعه الخالق ــ سبحانه ــ لهذا الكون وهذا الإنسان • وهو الذى يعلم حقيقة هذا الإنسان وطبيعته ، وفطرته ، وإمكاناته ، وحاجاته •

وهذا المنهج إطار شامل لحياة الإنسانية فى تحولها وتغيرها وتجددها ؛ وصالح لحاضرها ومستقبلها • فهو لكل مقومات الحياة البشرية •

وإذا كان الإنسان قد خضع لفهم خاطىء نتيجة لنظريات أخطأ أصحابها

فى أسسها ومسلماتها ، وبالتالى فى نتائجها وتطبيقاتها ؛ فإن أول نقطة بالنسبة للحياة المعاصرة هى تصحيح فهمنا للإنسان ولأهدافنا فى هذه الحياة ، ومن ثَمَّ يسهل علينا أن نعرف وسائلنا وسبلنا فى هذه الحياة •

وإذا كان شطر هذا الإنسان وهو المرأة قد تعرضت هى الأخرى لفهم خاطىء ووظيفة خاطئة فإن فى الإسلام تصحيحاً لأوضاعها • وإذا كانت النظرات والنظريات المختلفة قد أخفقت فى الحكم على كثير من أقضية الحياة وأمورها ــ فإن المنهج الإسلامى هو التصحيح الحقيقى لهذه الأحكام ولمسار تلك القضايا ، بما يحفظ للإنسان خصائصه الأساسية ؛ فللإسلام موقف تشجيعى من العلوم الجزئية الطبيعية ، وله تاريخ مشرف خاص بها • وهو موقف يؤكد « المثالية الواقعية » أو « الواقعية المثالية » التى تسهم هذه العلوم فى تحقيقها فى إطار قيمه المتسامقة ، كما أن له موقفاً خاصاً يهدف إليه إلى أقصى درجاته ، شريطة أن يكون مسار هذا التقدم فى إطار هذه القيم ، وهو بذلك ينشد بناء الدنيا وتعميرها ، والاستمتاع بخيراتها دون إغفال للحياة الآخرة ، ولكن يتم بناء الدنيا لغاية هامة وهى كسب الآخرة • وبذلك فمنهج الإسلام يحقق للبشرية كسباً للدنيا ، وكسباً للآخرة •

وهذا المنهج الإسلامى هو الذى يدعم البناء الاجتماعى الكلى للمجتمع بنظمه : السياسية والاقتصادية ، والاجتماعية والتربوية ، والأخلاقية •

ومغزى ذلك أن هذه الأنظمة كلها لابد أن يتم حقنها « بمدخلات هذا المنهج الإسلامى » من عقيدة وفكر وقيم ، وتنظيم وسلوك ، بحيث يكون إعداد القوى البشرية ــ التى تقوم عليها هذه الأنظمة الاجتماعية ــ مشتقاً من هذا المنهج الإسلامى • فمهاراتها ومعرفتها ، وأساليبها الإدارية وأهدافها ، وميثاقها الأخلاقى ــ يستوحى من هذا المنهج •

المغزى التربوى لعالمية الاسلام :

إذا كان الإسلام ديناً يتميز بخاصية العالمية ، فمعنى ذلك أن الشخصية الإسلامية التى تعتنقه ينبغى أن تتصف بصفتين أساسيتين هما :

١ ــ عالمية الشخصية الإسلامية •

٢ ــ إنسانية الشخصية الإسلامية •

وهذان الأساسان يلخصان كثيراً من القضايا الخاصة بالإنسان وبالمجتمع • ومعرفتنا بهما يحسمان كثيراً من القضايا التى طرحت فى العصور المختلفة عن الإنسان والمجتمع ، كما يحسمان هذه القضايا فى العصر الحديث بالذات ؛ خاصة أن هناك فلسفات معاصرة ــ مثل « الماركسية » و « الداروينية » ــ قد حاولت أن تنظر لهذين الأساسين نظرة مغايرة لنظرة الإسلام إليهما • وترتب على ذلك وجود تطبيقات مغايرة أيضاً لنهج الإسلام فى واقع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية • كما ترتب بالتالى على ذلك آثار مختلفة فى النظرة إلى الإنسان ؛ وكذلك فى أمور تربية هذا الإنسان ، وهدف وجوده ونشاطه فى هذه الحياة •

وسنعرض لهذين الأساسين فى الإسلام بالقدر الذى يلخصهما فى وضوح • ومن يريد التعمق فيهما ، فإننا نكون قد وضعنا له معالم على الطريق لفهم هذين الأساسين • كما أننا لن نحلل الفلسفات المناهضة والمناقضة للفكر الإسلامى ، ولكن بمجرد إشارتنا « لرأى » الإسلام فى هذين الأساسين سيتضح الكثيرُ من أخطاء النظريات « المادية » و « الحيوانية » • ومن يريد المزيد من التعمق فيهما ، فليقرأهما فى مؤلفاتهما الأصلية ، وستكون إشارتنا لهذين الأساسين الإسلاميين أيضاً قيمة فى إبراز علامات على طريق فهم انحرافهما عن التفكير السوىّ •

فما هما هذان الأساسان فى رأى الإسلام بوضوح واختصار ؟ •

أولا ــ عالمية الشخصية الاسلامية ومغزاها التربوى :

إذا كان الإسلام قد نزل للبشرية كافة ؛ فإن معنى ذلك أن دعاته لابد أن يهبوا أنفسهم لهذه الفكرة ؛ وهى أن يكونوا دعاة للعالم أجمع • وصفات العالمية فى الداعية ووهبه نفسه لها لا تقتصر على الدعاة من أهل هذا الدين ؛ وإنما تمتد لتشمل كل مسلم • فأقل شىء وأقل ملامح وخصائص يتصف بها المسلم هى أن يتمثل ويهضم خصائص هذه الدعوة العالمية ، وأن يسير

وفقاً لها ، والإنسان فى ظل هذه الخصائص ينطلق فى دعوته هذه من خلال جماعته المسلمة • وتلخص هذه المعانى كلها آية الرحمن : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »[1] • فأمة الإسلام هى التى تتصف بالخصائص التى تجعلها متميزة عن بقية الناس • ثم إنها لا تتعالى على الناس ، ولا تحتقر الناس ، ولا تبغض الناس ، ولا تستعبد الناس ، وإنما تدعو الناس إلى الخير ، وتنهاهم عن الشر • فهى أمة متفاعلة مع الناس إيجابية معهم لا تدعهم وشأنهم ، ولا تستغل انخفاض خصائصهم عن المستوى الإنسانى اللائق بالبشر لكى تستعبدهم وتحتقرهم ، وإنما تحاول جادة أن ترتفع بهم من الخصائص المنخفضة عن المستوى الإنسانى اللائق إلى المستوى الإنسانى الذى كرمه الله •• إلى مستواهم هم •

وفى ظل هذه الخصائص والمعانى تدحض الخصائص والمعانى التى يدعو إليها دعاة الاستعمار ، والتفرقة العنصرية ، وتفوق الجنس • لأن اصطفاء الرحمن لهذه الأمة لا يسمح لها ولا يعطيها فرصة لكى تتعالى على غيرها ، أو تجعل نفسها « ظلّ الله فى الأرض » ، أو « شعب الله المختار » • وإنما أخرجت هذه الأمة للناس هادية للخير ، داعية إلى المعانى والمثل العليا ، التى يتضمنها هذا الدين ويشملها فى نطاقه ؛ ومنها الحق والخير ، والعدالة ، والسلام ، والفضيلة ، والإخاء والمساواة ، والأخلاق الكريمة ، والمحبة ، والتعاون • وكل ما حشدت به قواميس القيم والأخـــلاق المثالية العملية الإيجابية فى نفس الوقت •

والأمة الإسلامية ــ فى هذه المهمة ــ قد اختارها « الخالق » سبحانه ، وفى مقابل هذا الاختيار والتمييز قد حَمَّلها فى نفس الوقت رسلة التضحية بكل ما يملكه الإنسان من أمور تعز عليه فى هذه الدنيا : تضحية بحياة الإنسان حينما يبذلها فى سبيل « هذه الرسالة » ، وفى سبيل « بقاء واستمرار هذه الصفات الإنسانية » التى تتصف بها هذه الجماعة ، وبغيرها لا يمكن أن يكون لها وجود • وتضحية بماله وولده فى سبيلها • وفى هذا يقرر هذا الدين الجهاد

---

(١) سورة آل عمران ــ آية (١١٠) .

فريضة على كل مسلم « الجهاد فريضة على كل مسلم ومسلمة » • والجهاد يحمل ــ ضمن ما يحمل أساساً ــ نشر هذه الدعوة على الناس أجمعين • والجهاد ليس معناه الغزو والقهر للبلاد الأخرى ، وإنما هو دعوة لقيم هذا الدين ، ومبادئه ، وأسسه وأصوله • فإذا ما استجابت البلاد لهذه الدعوة كان بها ، وإذا حال دون وصول هذه الدعوة واتباعها قوة من قوى البشر وجب على دُعاة هذا الدين أن يحملوا سلاحهم ، لكى يزيلوا الحواجز التى تمنع الناس عن اعتناق هذا الدين • فإذا ما وصل الإسلام إلى بلد فإن أهل هذا البلد لا يُقهرون ولا يضطرون على اتباع هذا الدين ، وإنما تكون الدعوة له واتباعه بالحسنى « ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن »[1] • فإذا ما شرح الله قلب الناس للإسلام فلنرحب بهم ، وإذا رأى قوم أن يظلوا على دين مخالف لدين الإسلام فعلى الدعاة احترام عقيدتهم وفكرهم • وفى هذه الحالة يكون « لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا » •

فالجهاد فريضة لإبلاغ الدعوة الإسلامية إلى البشر جميعاً • والجهاد يدفع المسلمين حاملين السلاح فى يد ، والدعوة فى اليد الأخرى • وذلك لمحاربة عدو الله وعدو المسلمين على هذه الأرض : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[2] •

والآن نتساءل : ما مغزى هذه المعانى والمفاهيم الإسلامية تربوياً ؟ •

ــ ما مغزاها بالنسبة لأهداف بناء الإنسان المسلم ؟ •

ــ ما مغزاها بالنسبة لوسائل وأساليب تربيته ؟ •

ــ ما مغزاها بالنسبة لمناهج بنائه وتكوينه ؟ •

ــ ما مغزاها بالنسبة لإعداد المعلم الذى يحقق هذه المفاهيم وتلك المعانى والاتجاهات الإسلامية فى الإنسان ؟ •

---

(١) سورة النحل ــ آية (١٢٥) .
(٢) سورة الأنفال ــ آية (٦٠) .

ـــ ما مغزى ذلك بالنسبة للمبنى المدرسى ؟ •

إن الإجابة عن هذه الأسئلة يفرض علينا تغييراً فى بنية التعليم الإسلامى فى عالمنا الإسلامى شكلا وجوهراً • فأهداف التعليم لابد أن تحتل ـــ لبناء الإنسان بناءً حربياً ـــ مساحة هامة فيها •

وارتباط هذا البناء الحربى بالعقيدة الإسلامية مسألة حيوية فى البناء الإسلامى للمسلم •

فليس أقوى من بناء الإنسان عقائدياً حتى يصبح على استعداد تام للزود عن هذه العقيدة الإسلامية • ولابد أن يدرك أن تمسكه بتلك العقيدة سوف يعرضه إلى طغيان قوى البغى والشر • ومن ثمّ لابد أن يتحصن لذلك ويستعد له • ومن هنا نفهم مغزى الآية الكريمة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » •

والمسلم لابد أن يتذكر دائماً قصص الجهاد الذى قام به رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وقصص الجهاد التى مر بها المسلمون على مر التاريخ ، حتى يعايش هذه الخبرات ومغزاها الحقيقى • ومن ثمّ تجىء ضرورة ربط التاريخ الإسلامى بالعقيدة الإسلامية ؛ وضرورة ربطها بالجهاد فى سبيل الله • وأهمية الجهاد لحماية العقيدة ونشرها والدفاع عنها • وضرورة التأكيد عليها على أنها رسالة للمسلم فى كل زمان ومكان •

ومن هذا التحليل وتلك الإشارة البسيطة ندرك صلة هذا المفهـــوم الإسلامى بأهداف التربية ، وبمسئولية المناهج والأساليب التربوية • بل ندرك صلة هذا كله بالمبنى المدرسى ، وعلاقته بإعداد المعلم المسلم ، القادر على بث هذه المفاهيم بإيمان وصدق فى أجيال وأبناء هذه الأمة الإسلامية •

ثانياً ــ إنسانية الشخصية الإسلامية ومغزاها التربوى :

الخاصية الثانية فى الشخصية الإسلامية هى « إنسانية الإنسان » • وهى صفة تميزه عن بقية المخلوقات الأخرى • ولقد حدد الإسلام ملامح وخصائص الشخصية الإسلامية بشكل فريد معجز • وحسم بهذه الخصائص قضايا خلافية وردت قبله ، كما وردت ــ للأسف الشديد ــ بعده فى غياب الفهم الحقيقى لهذه الخصائص التى حددها الإسلام • ويرجح بعض المحللين أن هذه القضايا التى جاءت بعده مُبعدة الإنسان عن خصائصه الحقيقية ــ أنها محاولة لنشر فكر مخالف لفكر الإسلام ، حتى وإن كانت هذه المحاولة يشوبها المغالطة الفكرية والعلمية • ويرجح صدق هذا الرأى أن هذه المحاولة كانت تحاول أن توهم الناس باستنادها على البحث العلمى والحقائق العلمية • متخذة من البحث العلمى ذريعة لنشر فكر خاطىء ، معتمدين على تقديس العلم والعلماء لهذا المنهج العلمى ، وليس مكمن الخطأ ، فى المنهج العلمى ، أو فى الحقائق العلمية ، ولكنه فى التضليل الذى اتُّخذ تحت ستار هذا المنهج العلمى وحقائقه •

وصف الإنسان مرة بأنه « حيوان » • ومرة أخرى بأنه « قرد » ومرة ثالثة بأنه جزء من « كيان اجتماعى كلى مطلق » • وكان وراء كل وصف من هذه الصفات مجموعة من المحاولات الفكرية ، وأحياناً العلمية لتؤكده • بل إنّ كثيراً من الاتجاهات الاجتماعية ، والسياسية كانت تحاول أن تتخذ من هذا الوصف أو ذاك ذريعة لتبرير سلوكها ، وتبرير ما تكوّن من اتجاهات : سياسية واجتماعية واقتصادية ــ فى مجال الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية •

وتلاقت هذه الاتجاهات ، وتجمعت حول خط يتصاعد باستمرار لتدمير خصائص الإنسان ، والنظر إليه ومعاملته وفقاً لخاصية من هذه الخصائص التى تتبناها : فتارة تنظر إليه على أنه حيوان ، وتارة أخرى تعامله على أنه ترس فى آلة ، أو آلة فى حد ذاته ، تعمل إذا أراد مُحرِّكها أو مُشغِّلها لها أن تعمل ، وتتوقف بمجرد إغلاق التيار الكهربائى عنها • وليس لها إرادة

تذكر !! فى حين أن من أهم خصائص الإنسان تلك الإرادة الحرة التى تحفزه للعمل ، والنشاط ، والإنتاج .

وفى الوقت الذى تفشل فيه الفلسفات الوضعية المعاصرة عن أن تجد حلا لهذه المعادلة الصعبة الخاصة « بالإنسان » ، نجد أن « الإسلام » هو الصيغة الوحيدة التى يستقيم فى ظلها التفكير ، والاجتهاد البشرى « فى الإنسان وعن الإنسان » . ومن هنا فإن الإسلام ضرورة إنسانية للبشرية . فمنذ أن نزل الإسلام كدين ختم الرسالات كلها فقد وضع فى اعتباره الشمول والاستمرار والتكامل ، والتناسب مع العصور المستقبلة للبشرية . وهو من هذه المنطلقات « دين مطلق و دين نسبى » : مطلق ، لأنه يصلح لكل العصور والمجتمعات ، ونسبى ، لأنه فى استطاعة كل مجتمع وكل إنسان أن يلائم بين حياته ونظمه ، والإطار العام لهذا الدين وقيمه المطلقة .

إن الإسلام يبنى على أسس مُسلَّمة من أهله ، وهى أن خالق البشر هو الله سبحانه وتعالى .. والخالق هو العارف الوحيد لمن خَلق ، ومن ثمَّ فإن الطبيعة الإنسانية يعرفها خالقها ، ومن ثمَّ أيضاً فهو « القادر » على فَهم أبعادها ومطالبها وكيفية اشباعها وبالتالى تربيتها .

وأى اجتهاد بشرى فى التشريع والتطبيق الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والتربوى يمكن أن يكون التوفيق حليفه إذا ما تم فى ظل الإطار القيمى والفكرى والتشريعى العام للإسلام . وأى اجتهاد بشرى فى هذه النواحى كلها فى غياب هذا الإطار لابد أن يخفق فى الهدف وفى الوسيلة .

وعلى أساس عالمية الشخصية الإسلامية وإنسانيتها . وعلى أساس الفهم الكامل لها من الخالق سبحانه وتعالى بُنيت التربية الإسلامية هدفاً وسبيلا ، فهدفها يتلخص فى بناء الإنسان كشخصية إنسانية عالمية ، بكل ما تحويه هذه الكلمات من معنى ومحتوى .

فالشخصية التى تستهدفها التربية الإسلامية متكاملة عقلياً ، وروحياً ، وجسمياً ، ونفسياً . وشخصية عالمية لا تقف من قضايا العالم موقف المتفرج

وإنما هى شخصية هادية للبشر جميعاً • وعليها مسئولية هذه الهداية ، وهى فى ذلك تدعو إلى « رسالتها » بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتجاهد فى سبيل ذلك حتى تقهر القوى التى تحول بينها وبين نشر « الرسالة الإسلامية العالمية » •

والشخصية التى تستهدفها التربية الإسلامية تجاهد نفسها أولا : « ابدأ بنفسك أولا ثم بمن تَعُول » • وجهاد النفس أول منطلقات التربية الإسلامية • وهو جهاد شاق وصعب ، ومرير • ولكنه أساسى ، ولا يمكن البدء بتربية إسلامية بدونه •

ثم تكون ، « القدوة » الخطوة الثانية فى التربية الإسلامية • وهى تعنى تمثل القيم والمبادىء والنظم التى تحتويها الرسالة الإسلامية ، تمثلا فكرياً ، عقائدياً ، سلوكياً •

أما الخطوة الثالثة فهى نشر هذه الدعـــوة وتعاليمها بمقتضى تأثير « القدوة » وسحرها فى الآخرين • ونشر الدعوة يكون بلا حدود يقف عندها ، إذ أن هدف « الرسالة الإسلامية » كما ذكرنا هو هداية البشرية ككل ، ونشر مبادىء هذه الدعوة عليها جميعاً وهى عالمية التربية التى ذكرناها •

ملامح المجتمع الاسلامى ومضمونه التربوى :

إن الله هو غاية المجتمع المسلم ؛ فوحدانية الله هى التى تحدد منهج المجتمع الإسلامى وطريقه وتصوراته فى الحياة الدنيا والآخرة ، وعباداته التى يقدمها لله وحده ، ومن ثم فإن مصدر تلقى هذا المجتمع لكل أموره وتشريعاته تكون ما أنزله الله كأصول للدين الإسلامى ، وكما بلغها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم •

والرسول هو قائد المجتمع الإسلامى وزعيمه ؛ فهـــو القدوة التى يُستَمَدُّ منها جميع الأهداف والوسائل • وفى أقواله وأفعاله ما يُتأسَّى به ويُحتذى فى أمور الدين والدنيا كلها : فى الحكم ، والسياسة ، والحرب ، والقيادة ، والاقتصاد ، وفى أمور الأسرة ، ومشكلات الحياة الاجتماعية

العامة والخاصة • والقرآن دستور هذا المجتمع الإسلامى ، وهو المصدر الوحيد للتشريع فى كل أمور المجتمع ، ولا تشريع غيره ينقذه من الهوى الإنسانى ، والتخبط الذى يسبب له المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة •

والجهاد أحد الوسائل الرئيسية فى بناء الإنسان ، وبناء المجتمع الإسلامى والحفاظ عليه ، وتبليغه إلى العاملين كافة •

وإذا كان المجتمع الإسلامى يقوم أساساً على الإيمان بإله واحد ، وما يفرضه هذا الإيمان من تحكيم شريعة الله فى جميع شئون هذا المجتمع الإسلامى ، فإن الشريعة تعنى مفهوماً واسعاً لا ينحصر فى التشريعات القانونية ، وأصول الحكم وتطبيقاته فحسب ، وإنما هى تعنى كل ما شرعه الله لتنظيم حياة المجتمع فى جميع النظم : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية والأخلاقية والتربوية • وذلك فى كل ما يتعلق بأصول العقيدة ، وأصول الحكم ، والمعاملات الاقتصادية ، والعلاقات الاجتماعية وقواعد الأخلاق وأساليبها وأنماطها ، وأصول المعرفة التى يُنشئها فى النفس البشرية تصورها الإسلامى لكل جوانب الوجود المادى والبشرى وعلاقته بخالق هذا الوجود ، وحقيقة هذا الوجود ، ومكانة الإنسان فيه وغايته ، وقيم وجوده • وهذا التصور الإسلامى ليس مجرد تصور فكرى • إنما هو تصور اعتقدى مُوحٍ ومبسطر على كل انبعاث فى الكيان الإنسانى[1] •

والله سبحانه هو المصدر الأول للمعرفة فيما يختص بالعقيدة والعبادة والخلق ، والمعايير والقيم المختلفة ، الخاصة بمبادىء وأصول النظم الاجتماعية : سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية • والخاصة بتفسير بواعث النشاط الإنسانى تاريخياً وآنياً • ويستطيع المسلم أن يتلقى هذه المعرفة ويتقبلها بفطرته من ذلك المصدر الإلهى عن طريق رسول هذا الدين الإسلامى وتابعيه • وكل علوم تتعلق بهذه المسائل تُعتبر فرضَ عينٍ •

---

(١) محمد قطب ، منهج الفن الاسلامى .

ولقد خلق الله فى الإنسان قدرات وإمكانات عقلية وحسية يستطيع بها — إذا ما نمت — أن يصل إلى حقائق العلوم الطبيعية ، مثل : الطبيعة ، والأحياء ، والفلك ، والكيمياء ، والطب ، والزراعة ، والصناعة ، وأساليب الإدارة ، وفنون الحرب ... إلخ . ويستطيع المسلم أن يصل إلى هذا الجانب من المعرفة بنفسه ، أو يتلقاه من غيره من البشر — مسلمين ، وغير مسلمين — وكل هذه العلوم تعتبر فرض كفاية .

ويحصل الإنسان على هذه المعرفة الأخيرة من مصدرين هما :

١ — المصدر العقلى : ويستخدم فيه المنطق العقلى والاستدلال والتحليل العقلى .

٢ — المصدر الحسى : ويستخدم فيه الحواس كمصدر للمعرفة توصل إلى عقل الإنسان ، تجاربها ، واستقراءاتها ومشاهداتها فى الطبيعة ، وسرعان ما يُدرك العلاقات بين الأشياء ، ويصل إلى مفاهيم خاصة بهذه المدركات الحسية العقلية .

المغزى التربوى للعقيدة الاسلامية :

قلنا إن عقيدة المسلم هى الخضوع لإله خالق له وللأكوان كلها . وهذا الإله الواحد هو الغاية التى يتلقى عنها كل أمور دينه ودنياه ، وبعبادته لهذا الإله الواحد يتحرر الإنسان فى هذه الأرض من عبادة العباد ، ومن عبوديته لأى مخلوق آخر . وهذه الغاية تعطيه قوة معنوية لا تضارع . قوة يختفى معها خوف الإنسان من الإنسان . وبذلك تختفى من الإنسان كل سلبيات الشخصية البشرية من خوف وجبن وخنوع وخضوع ونفاق .

ولا ينتصر الأمر على الإنسان عند حد الإيمان بإله واحد ، ولكنه مطالب بأن ينشر هذه الغاية بالتبليغ والجهاد فى سبيل نشر هذه الغاية ، حتى تسود « شريعة الله » بعد سيادة عقيدة الوحدانية لله . ولكى يحقق « المؤمن » ذلك فإن « التربية الإسلامية » تعده لتحمل هذه التبعات : تبعات الجهاد لنشر الإيمان والوحدانية . « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل

ترهبون به عدو الله وعدوكم » • وتبعات مواجهة العقبات التى تسيطر على واقع المجتمعات البشرية من عقبات سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وطبقية ، وعقائدية منحرفة وباطلة ، وعنصرية •

والإسلام يقوم على جهاد أكبر بعد الجهاد الأصغر ، وهذا الجهاد الأكبر هو جهاد النفس البشرية ، وهو مبدأ تربوى يجاهد الإنسان فيه نفسه ويروضها على فعـــل الخير واجتناب المعصيات وفقاً لمعـــايير هذا الدين وأخلاقياته وفرائضه ، وهى عملية تحتاج إلى وعى وبصيرة تتم من خلال عمليات التربية ، والممارسة الفعلية التى ينشأ عليها الصغار فى إطار الاقتداء بالكبار من آباء ومربين •

فالإسلام منهج للوجود كله بما فيه الوجود الإنسانى • فهو يؤكد أن وراء هذا الوجود مشيئة الله تدبره وتنسق حركته المستمرة • فتصبح تلك الحركة المنتظمة المتناسقة • والمضمون التربوى لذلك هو دراسة أسس وقواعد هذا المنهج ، وربطها بالإطار الفكرى لهذا الإسلام •

وهدف التربية الإسلامية هو إقامة مجتمع إسلامى فى عقيدته ، قائم على شريعة الله ونظامه ، وأخلاقيات الإسلام وفرائضه • ومن ثمّ فإن المجتمع الإسلامى يعتبر هدفاً للناشئة الذين نقوم بتربيتهم • ويتطلب ذلك دراسة لدعائم المجتمع الإسلامى ونظمه ، ومظاهر تطبيق الشريعة الإسلامية . وأثر الأخلاق الإسلامية فى تدعيم المجتمع ، وأثر الفرائض فى تنقيته •

إن الإسلام يقوم على أساس مجموعة من القيم التى تولى وزناً للجانب المادى وغير المادى فى الحضارة الإنسانية • وقيمه التى ترتبط بالجانب المادى قيم إنسانية ، وتلك التى ترتبط بالجانب غير المادى قيم إنسانية أيضاً • وهى قيم واقعية عملية ، تتحقق فى المجتمع البشرى بالجهد البشرى فى ظل المعايير والموازين والتصورات الإسلامية • وهى قيم ينمو فى ظلها الإنسان نموّاً متكاملا ، كما ينمو فى ظلها المجتمع نموّاً متكاملا كذلك• ودراسة هذه القيم التى تشكل الضابط الأساسى لسلوك البشر ، وضابط لإيقاع الأساسى

لتأدية النظم الاجتماعية وظائفها بجدارة معجزة • تتلاشى أمامها كثير من وظائف النظم الاجتماعية فى ظل المجتمعات الأخرى غير الإسلامية •

إن طبيعة الدين الإسلامى أنه دين مرتبط بالأنظمة الواقعية فى حيـــاة المجتمع البشرى كلها • ومن ثمّ فهو دين متفاعل مع أمور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية كلها • فالإسلام بذلك هو منهج للحياة البشرية ، يضع أصولا عامة لجميع النظم الاجتماعية تتفق مع طبائع البشر ، وطبائع الحياة الاجتماعية فى كل عصر ، ومصر • فهو من هذه الزاوية دين يحوى أموراً مطلقة ، وضعت لتنظيم الحياة البشرية على مرّ الأجيـــال والأزمان • وهو بذلك أيضاً دين الحاضر والمستقبل ، ومن زاوية أخرى فإن الأوضاع الاجتماعية والزمانية تفرض فهماً ينبثق من كل عصر ، ومن كل مجتمع • وهذا الدين يترك هذه الأمور الاجتماعية والإنسانية محل نظر وبصر من المجتهدين من البشر ، فى إطار القيم العامة والإطار الشامل لهذا الدين • وبذلك فهو دين يحوى النسبية ويحترمها ، كما يحوى القيم المطلقة والنظرية الشاملة ، ويجعلها أساساً تؤسس عليها كل القيم النسبية المتغيرة •

التربية الاسلامية بين المطلق والحاضر :

وتقوم التربية الإسلامية على أساس أن « الخالق » هو « الأعرف » بالطبيعة البشرية التى خلقها ، ومن ثم فإن الخالق وحده هو القادر على وضع الأسس العامة لتربية هذه الطبيعة البشرية ، وبالتالى فإن منهج الإسلام وتصوراته ومبادئه الإســـلامية التربوية هى الإطار الأساسى لتربية هذا الإنســـان •

فالتربية الإسلامية ــ كما هو الحال فى الإسلام عامة ــ صالحة للإنسان فى كل زمان ومكان • ومن هنا ندرك المعنى الإطلاقى فيها ؛ بل فى الإسلام عامـــة •

ثم تقوم كذلك على أن هذا « الإنسان » الذى خلقه الله سبحانه وتعالى قد هُيىء بإمكانات واستعدادات جسمية وعقلية ، ونفسية واجتماعية ،

تمكنه من استيعاب الإسلام ومناهجه ، وأسسه ومبادئه التربوية • وتمكنه كذلك من أن ينمو فى جميع جوانب مكوناته فى ظل هذا الاستيعاب ، كما تمكنه أيضاً من أن ينمى الظروف والإمكانات ، والفهم والاستيعاب وفقاً لظروفه وأوضاعه الاجتماعية ، والتاريخية ومن هنا ندرك المعنى النسبى فى التربية الإسلامية ؛ بل فى الإسلام عامة •

فالتصورات والمناهج والمبادىء الإسلامية هى الإطار العام للتربية ، وفى ظل هذه التصورات والمناهج والمبادىء يستطيع المربون أن يجتهدوا ، وأن يصلوا إلى تفصيلات لدقائق التربية ، وتفرعاتها •

فالتربية الإسلامية بهذا الشكل ذات إطار عام يستمد مصدره من مصادر الإسلام الأساسية ، وهى القرآن والسنة ؛ وهذا الإطار العام يحسم كثيراً من القضايا الإنسانية والاجتماعية التى تواجه الإنسان ، ويترك بعض هذه القضايا للاجتهادات البشرية فى ضوء هذا الإطار العام •